حظوظ الخصوصيات التراثية في المحافظة على الهوية الثقافية في زمن العولمة

فتيحة زايدي[1*]، فايزة مجدوب [2]،

[1] المدرسة العليا للأساتذة ورقلة (الجزائر)، zaidi.fatiha@ens-ouargla.dz

[2] جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 (الجزائر)، faiiza19@hotmail.com

تاريخ الاستلام : 2019/10/20 ؛ تاريخ القبول : 2019/11/01

ملخص: أن مسألة الهوية في الجزائر تمثل إشكالية قصوى ضمن فسيفساء المشهد الثقافي وخضم الثورة الاتصالية والتكنولوجية مع مبدأ تعدد الثقافات مطلب مفروض في العالم و حتمية الانصهار في الثقافة المعولمة والمهيمنة لكونها أمر محتم؛ فهي لا تعترف بالحدود الوطنية للدولة ولا بالحدود الشخصية للأفراد؛ وعليه تعد قضية الهوية الثقافية قضية إشكالية وهنا تبرز مسألة الماضي القومي والوطني المكتسب في شكل التراث كمرتكز لا بد من المحافظة عليه باعتباره الوجه الحقيقي المعبر عن الهوية الثقافية من جراء التراكمات التاريخية وبين مطلب تغييره أو تنوعه ودخوله حيز الانفتاح لأجل مسايرة متطلبات العولمة وما تحتويه من إغراءات، ولعل ما يزيد من تعقيد هذه الإشكالية ويؤزمها هو تلبسها بالطابع الديني، والإيديولوجي، منه انبثقت مجموعة الأسئلة أهمها: ما هي حظوظ الخصوصيات التراثية في المحافظة على الهوية الثقافية في زمن العولمة؟ وما حقيقة هويتنا بين معطيات الأسلمة، والعروبة والعولمة؟

الكلمات المفتاحية: التراث؛ الثوابت الحضارية؛ الهوية الثقافية؛ العولمة.

Abstract :The issue of identity in Algeria is a fundamental problem within the mosaic of the cultural scene; And the midst of the communication and technological revolution with the principle of multiculturalism is a requirement imposed in the world, And the inevitability of fusion in the globalized and dominant culture as it is inevitable; It does not recognize the national borders of the state or the personal borders of individuals. Therefore, the issue of cultural identity is problematicHere, the issue of the national and national past acquired in the form of heritage appears as an anchor that must be preserved as the true expression of cultural identity as a result of historical accumulations and between the demand for its change or its diversity and its entry into the space of openness in order to keep pace with the requirements of globalization and the temptations it contains Perhaps what complicates and harms this problem is its religious and ideological character, From it emerged a set of questions, the most important of which are: What are the chances of heritage peculiarities in preserving the cultural identity in the era of globalization? What is the truth about our identity between the facts of Islamization, Arabism and globalization?

Keywords: Heritage, Civilization constants, Cultural identity, Globalisation.

مدخل:

يمر أي مجتمع بمجموعة من المنعطفات التاريخية يتعين عليه أن يعرف تقويم وميزانية انخراطه في هذه المراحل الجديدة، لكونها تعتبر تحدي جديد يفرض عليه مراعاة الخصوصيات والمكتسبات القبلية وأيضا ضرورة مواكبة الأوضاع المستجدة ومحاولة الاندماج والتفاعل مع متغيرات العالم وعليه فقد حظي هذا التحول والتدرج في المحافظة على شخصية وهوية المجتمع بكل ما يميزه من خصائص عن غيره باهتمام واسع ولكن ما زاد في حدة هذا الاهتمام تناول هذا الموضوع في ظل وفود مؤثرات ومتغيرات جديدة بكل ما تحمله من مستجدات فأصبح هذا الموضوع يتسم في الغالب بالتضخم وحتى الخوف في كثير من الأحيان على خصوصيات هذه المجتمعات لكونها مست جميع المستويات سواء الاقتصادية، السياسية،الاجتماعية والدينية إلى جانب الثقافية ومنه صار رهان مواكبة هذه التطورات أمر حتمي لا يخضع لمبدأ الاختيار وفقا لشخصية وهوية المجتمع، وهنا يبرز تأثير العولمة على هذه المجتمعات في صورة مكتسباته وثوابته الحضارية المعبرة عن هويته، وبما أن هذه الظاهرة مست مجتمعنا الجزائري وبكل ما يحمله من تنوع واختلاف في ثقافته وحتى هويته فإن هذا الموضوع يتسم بالتأزم وعدم القدرة على خلق خطاب جامع ومتفق عليه نسبيا حول هوية ثقافية واضحة وعليه نلاحظ أن مسألة الهوية في الجزائر تمثل إشكالية قصوى ضمن فسيفساء المشهد الثقافي وفي خضم الثورة الاتصالية والتكنولوجية مع مبدأ تعدد الثقافات مطلب مفروض في العالم هذا من جهة و من جهة أخرى حتمية الانصهار في الثقافة المعولمة والمهيمنة لكونها أمر حتمي فهي لا تعترف بالحدود الوطنية للدولة وكذلك بالحدود الشخصية للأفراد وبناءا عليه تعد قضية الهوية الثقافية قضية إشكالية خصوصا واصل ومبدأ هذه الهوية لكونه يشكل الظرف الحاسم لطبيعة العلاقة مع العالم الخارجي والداخلي بناءا على التطورات الاعتقادية حولها يتحدد مسار المجتمع وتعاطيها مع الحياة الداخلية وبالذات مع الآخر في ذات الوقت وهنا تبرز مسألة الماضي القومي والوطني المكتسب في شكل التراث كمرتكز لا بد من المحافظة عليه باعتباره الوجه الحقيقي المعبر عن الهوية الثقافية من جراء التراكمات التاريخية وبين مطلب تغييره أو تنوعه ودخوله حيز الانفتاح لأجل مسايرة متطلبات العولمة وما تحتويه من إغراءات، ولعل ما يزيد من تعقيد هذه الإشكالية ويؤزمها هو تلبسها بالطابع الديني، والسياسي والإيديولوجي والتاريخي وحتى اليومي.

وبناء على ما سبق عرضه ارتأينا من خلال ورقتنا البحثية هذه إعطاء كل من المفاهيم الآتية التراث، الثوابت الحضارية والهوية الثقافية حقها من التحليل طبعا بعد عرض مختلف تعريفاتها ومفهوماتها وإبراز حظوظ هذه المكتسبات بين ضرورة المحافظة عليها أو التنحي للتجديد مواكبة والعولمة كمتغير وافد بكل تجلياته وتمفصلاته وعليه انبثقت مجموعة تساؤلات أهمها: ما هي حظوظ الخصوصيات التراثية بكل فروعها في المحافظة على الهوية الثقافية في زمن العولمة؟ وهل لتحصل أي دولة أو مجتمع على مربع لها في العولمة لابد أن تتخلى عن تواصلها الحضاري والثقافي؟ وكيف نحقق ونحافظ على هويتنا الثقافية في عصر العولمة؟ وما حقيقة هويتنا بين معطيات الأسلمة، والعروبة والعولمة؟

1) **مفاهيم الدراسة:**

أ. **التراث:** يعتبر من أهم المصطلحات شيوعا في حقل الدراسات النقدية والإنسانية المعاصرة وفي الغالب يتعلق بمسائل التحرر والنهوض بالأمم والتمسك بمكتسبات الماضي وعليه يعرف التراث على أنه: " كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة، ويعرفه أيضا **إسماعيل قباري**" هو ذلك المخزون الثقافي المتنوع والمتوارث من قبل الآباء والأجداد والمشتمل على القيم الدينية والتاريخية والحضارية والشعبية بما فيها من عادات وتقاليد سواء كانت هذه القيم مدونة في كتب التراث أو مبثوثة في بين سطورها أو متوارثة أو مكتسبة بمرور الزمن"[1].

ويعتبر روح الماضي والحاضر والمستقبل للإنسان الذي يحيا به وتموت شخصيته وهويته إذا أبتعد عنه.

ولعل أهمية موضوع التراث اكتست طابعها العام من كثرت النقاشات حوله وانقسام وتعدد تياراته ومن أهمها تيار مناصرين للأصالة وآخرين رافعين لواء الحداثة في حين التيار الثالث يرفع شعار المعاصرة وعليه فأن حضور قضية التراث في هؤلاء أو لدى أولئك هو حضور قوي لأن العودة إلى التراث في حياتنا المعاصرة هي جزء من عملية الدفاع عن الذات وهي عملية مشروعة وتشترك فيها جميع شعوب الأرض ويبقي بعد ذلك كيفية التعامل مع التراث والعودة إليه وحدود توظيفه هذه مسألة أخرى، أما الموقف الثاني الذي يجعل التراث من ضرورات حياتنا المعاصرة فيتعلق أساسا بمواجهة الذات نفسها فالارتفاع إلى مستوى الحياة المعاصرة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية كافة يتطلب إعادة بناء الذات نفسها، وإعادة بناء الذات لابد أن تنطلق من إعادة بناء التراث، مع إعادة ترتيب العلاقة بين شيء ينتمي إلى الماضي وبين الحياة المعاصرة كشيء ينتمي إلى الحاضر والمستقبل، حيث أن التراث في مجمله رافدا ضروريا لإفادة الحاضر واستكشاف المستقبل ولعل الصواب أن نقول التراث هو نقطة البداية لمسؤولية ثقافية وقومية لأن ما يمنح الأمة هويتها وكيانها يتوقف على مدى شريان التراث في عروقها[2] .

ب .**الثوابت الحضارية:** يعتبر مفهوم الثوابت من بين المفاهيم التي تواجه تحديات أهمها عدم وجود نظريات حقيقية تحدده في إطار العام الصالح لكل مجتمع أو دولة لكونه مرتبط باختلاف الفكر والثقافة والهدف منهما، فهناك ثوابت على المستوى الديني والمستوى الثقافي والمستوى العلمي، كما أن أغلب الثوابت غير الرئيسية تتبناها تيارات فكرية، أو جماعات ومؤسسات وحتى دول تحاول اللعب على أوتارها، وعليه تكون معضلة تحديد هذا المفهوم. ولكن رغم هذا يمكن ضبط المفهوم في معناه اللغوي حسب ما ورد في قاموس المحيط هو المشدود الذي لا حراك به، وكلمة ثبت من الإثبات هو الحجة الثقة في رواية، ومنه نجد أن تعريف هذا المصطلح بالذات في غاية الأهمية لكونه يتوقف عليه فهنا لمصطلحات كثيرة كالحضارة والثقافة والخصوصية والهوية...الخ، وعليه فهناك من يحدد ثوابت الأمة على أنها النصوص القطعية الثابتة في الكتاب والسنة ما اجمع عليه سلف الأمة أما غيرها فينظر فيها، والثوابت إما أن تكون مطلقة وهي الثابتة في الكتاب والسنة أو الإجماع أو تكون نسبية فقد يكون الأمر ثابتا عند المجتهد ما لا يثبت عند غيره[3] .

ومن هذا المنطلق فقد سعت كثير الدول والتجمعات الدولية المهيمنة لبناء مجتمع المعرفة إلى وضع تصوراتها وأهدافها وخططها في أطر توفرها المرجعية وتضمن لها الحفاظ على خصائصها الحضارية واستثمار وتفعيل إمكانياتها وقدراتها الذاتية ثقافيا وفكريا واجتماعيا وماديا، وهناك من ينادي أن التحول الجاري في المجتمع يمكن فهمه بشكل أفضل إذا نظرنا إليه في سياق أوسع على أنه عملية اجتماعية تتفاعل فيها الجزئيات وشبكات الاتصال بين الجماعات والمعرفة في إطار السياق الاجتماعي[4].

فبالنسبة لمجتمعنا الجزائري تتمثل الثوابت على المستوى الهوية الحضارية التي توارثتها الأجيال عبر القرون والسنين ويمكن أن يعبر عنها في هذه الدراسة بثلاث مكونات أساسية وهي الدين واللغة والأصل والانتماء الحضاري وهذه الخلفية التاريخية أكد عليها ميثاق الثورة ويتجلى في تطور كفاح الحركة الوطنية خلال نضالها ضد الاستعمار وقيد انطلاق الثورة النوفمبرية وتضمن المبادئ أو الثوابت الأولي الواجب تحقيقها والدفاع عنها وتتمثل في[5].

– الديمقراطية وتتمثل في: من الشعب إلى الشعب باعتباره مصدر السيادة.
– الجمهورية: وتتمثل في نظام الحكم.
– ضمان الرفاهية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية.
– احترام المعتقدات الدينية طبقا لروح الإسلام وتقاليده.
– ثقافة وطنية مرتبطة بالثقافة العربية الإسلامية.

وبعدها تجلى في أول دستور للدولة الجزائرية المستقلة المقررة في دستور 1963 والذي يقر بأهم الثوابت الأساسية ويحدد معالم الهوية الوطنية الجزائرية[6].

وبما أن هذه الثوابت الأساسية قد حددت قانونيا فهي لا تقدم هذا الفهم للثوابت بسبب المكانة الخاصة لهذه المكونات الحضارية في عقل وقلب المجتمع ودورها المهم في تشكيل ثقافته وفكرة ورسم معالم هويته وحسب بل لان وجود إطار أعم ومستوى أعلى من الثوابت أحد متطلبات المجتمع. ومنه يمكن إدراك أهمية الثوابت الحضارية لجسم المجتمع من خلال الجدل القائم حول الحاجة إلى المرجعية في المجتمع نتيجة لازدياد حجم المعرفة واتساع دائرة الانفتاح على الآخر ودخول المجتمع في عصر الاتصال والتكنولوجيا وبروز نمط جديد يسيطر على أغلب المجتمعات في شكل نمطية أو كوكبة واحدة، وفي ظل هذا الوضع غير المتزن يمكن أن يصل إليه المجتمع لأن عجلة التقدم ماضية بسرعة نحو المستقبل الذي يحمل كثيرا من التعقيدات التي تواجه الإنسان وإذا وصل المجتمع إلى حالة عدم الاستقرار حينئذ تثار قضية المصداقية، وتصبح المسالة ذات أبعاد أخلاقية وقيمية أي لابد من الرجوع إلى القيم والأخلاقيات التي هي من أصل الثوابت لرفع اللبس، وتوضيح الغموض وحل المشكلات المتجددة وصياغة القوانين لحسمها وفظ النزاعات الناتجة عنها، ومن المهم أن ندرك أثر الثوابت لا يقتصر على مجال دون آخر في مجتمع العولمة، إذ يمكن أن تدعو الحاجة إلى الرجوع إلى الأخلاقيات والقيم عند الحديث عن سائر مجالات الحياة كالمجتمع ذاته، أو التضامن والتآزر بين أفراده، أو الاتصالات والتكنولوجيا أو الاقتصاد او غيرها في كثير من الجوانب[7].

ومن أهم الثوابت الأساسية سنتحدث عن أول ركيزة ألا وهو:

– الدين: أو العقيدة ويعد أول عنصر من عناصر الثوابت الحضارية ووجه الهوية للأمة لكونه يعرف بالانتماء ويعتبر الأساس وعليه ترتكز أو تبنى باقي الثوابت الأخرى إلى ذلك ينظر عليه على أنه جزء من الهوية المجتمعية التي تحرص كثيرا من الدول الحفاظ عليها، وتعمل على الاستثمار فيها في الوقت الراهن باعتبارها ممارسات ثقافية (كالشعائر الدينية والفنون التراثية، الحرف التقليدية..)، والترويج لها في إطار المحافظة على الدين الأصلي والتعريف به في صيغة عصرية (الجانب السياحي).

أما ثاني هذه الثوابت فهي: اللغة: باعتبارها لسان المجتمع وتعبر عن تاريخه وعقيدته وهي وسيلة لاكتساب المعرفة الإنسانية وإيصالها للآخرين، وتعتبر كأسلوب للتواصل والاحتكاك واثبات الهوية وتأكيدها وأيضا تعمل على تفعيل الهوية الثقافية، فحينما تكون لغة الفرد أو المجموعة فهذا يعني أنها في الوقت نفسه هي ثقافتهم بالإضافة لكونها لغة تلك الثقافة ومنها تتكون نظرتهم للحياة وبهذا الشكل تتكون هويتهم[8].

وعن ثالث هذه المكونات هو الانتماء فالهوية الثقافية تعني بالنسبة لنا أننا جزء من الأمة وهذا الانتماء الحضاري يكسبنا مكانة في التاريخ وفي الوقت نفسه يوفر الأرضية المشتركة لتنمية المجتمع، ضف لهذا مجموعة الثوابت الفرعية المكملة لثوابت السابقة كالتاريخ والماضي المشترك والعادات والتقاليد والآداب والفنون، ولكن رغم هذا يبقى لكل أمة حدود ومقومات خاصة بها تعبر عن هوية الأمة أو ثقافتها ومنه تفرق كل مكونات عن أخرى بحيث لا تصلح لتكون مقياسا لتحديد هوية أو ثوابت مجتمع آخر حتى لو كانت متشابهة في بعض العناصر وتبرز في الألفاظ، الرموز، اللباس، السلوك العفوي، المأكل، شكل الملبس، الفلكلور...الخ.

ج.**الهوية الثقافية**": لتحديد أطر هذا المفهوم لابد من إعطاء كلا المفهومين حقها من التحليل خصوصا في الجانب اللغوي وعليه فالهوية: يتحدد مفهومها بناء على الدلالة اللغوية والفلسفية والسوسيولوجية والتاريخية ويقابل مصطلح الهوية العربية كلمة "IDENTITE" و "identity" في الفرنسة والانجليزية على التوالي وهو من أصل لا تيني ويعني : الشيء نفسه أو الشيء الذي هو ما هو عليه أي الشيء له الطبيعة نفسها التي للشيء الأخر. وفي تراثنا الفكري العربي تعريفات كثيرة للهوية إذا عرفها الجرجاني بأنها الأمر المتعقل من حيث امتيازه عن الاغيار، وعند الفرابي " هوية الشيء : عينيته وتشخصه و خصوصيته ووجوده المتفرد له الذي لا يمتع فيه اشراك[9].

وفي الفلسفة الهوية هي مصطلح يعني عموما، كل نظرية لا تفرق بين المادة والروح، ولا بين الذات والموضوع، وتنظر إليها على أنها وحدة لا تنفصل.

وانطلاقا من التحديد اللغوي نحاول التعمق في فهم الإشكالية السوسولوجية والتاريخية لحقيقية الهوية،المجتمعية وكيف تتكون وكيف تتحدد وكيف تكون صيروراتها وجدليتها الخاصة بها وفق قوانين التطور الإنساني وفي إطار القوانين الثابتة و المتغيرة التي تضع الهوية و تعدل ملامحها عند الضرورة فمثلا يرى

الدكتور نديم البيطار: أن هوية الأمة هي هوية تاريخية و التاريخ هو الذي يشكلها و هو يعني ألا وجود لهوية خارج المجتمع و التاريخ فالأمة و حدها تملك الهوية سواء كانت جماعة – صغيرة أو كبيرة بشرط تماثل أفرادها و أنصارهم في الوجود المجتمعي الجماعي وأي فرد لا يستطيع أن يستقل عن الجماعة

الأمة– في هذا الإطار يعني أنه في حاجة إلى هوية تجمعه مع آخرين لأنه ليس بإمكانه أن تكون له هوية لوحده.

أما في تحديدنا اللغوي والاصطلاحي لمعنى الثقافة في اللغة تعني كلمة أو مصطلح "ثقف" قوم الشيء أي قومه عندما كان معوجا وغير سوي، فقال العرب " ثق الرمح أي قومته" فإذا قومت اعوجاجه فيبدو مثقفا أي مقوما[10].

أما اصطلاحا: فقد تعددت تعريفاتها ولعل أهم تعريف لها بعد تعريف إدوارد تايلور هو للمؤتمر العالمي بشأن السياسات الثقافية تحت إشراف اليونيسكو المنعقد في موسكو 1982 والذي نص أن الثقافة معناها الواسع يمكن أن ننظر إليها اليوم على أنها جميع السمات الروحية والمادية والعاطفية والفكرية التي تميز مجتمعنا بعينه أو فئة اجتماعية بعينها وهي تشمل الفنون والآداب والطرائق الحياتية كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان، تظم القيم والتقاليد والمعتقدات ذاته، كما عرفت على أنها عبارة عن الأفكار والتطورات والمعايير والمثل التي توجه السلوك الاجتماعي[11].

ومن تعريف الهوية والثقافة ينتج الهوية الثقافية فالمقصود بهذين المتغيرين أنهما تلك المبادئ الأصلية السامية والذاتية النابعة من الأفراد والشعوب، وتلك ركائز الإنسان التي تمثل كيانه الشخصي والروحي والمادي يتفاعل على صورتي هذا الكيان، لإثبات هوية أو شخصية الفرد أو المجتمع أو الشعوب بحيث يحس ويشعر كل فرد بانتمائه الأصلي لمجتمع ما يخصصه ويميزه عن باقي المجتمعات الأخرى والهوية الثقافية تمثل كل الجوانب الحياتية الاقتصادية الاجتماعية والسياسية والحضارية والمستقبلية لأعضاء الجماعة الموحدة التي ينتمي إليها الأفراد بالحس والشعور بالانتماء لها وأيضا هي ذاتية الإنسان ونقاءه وجمالياته وقيمته بحيث تعتبر الثقافة هي المحرك لأي حضارة أو أمة في توجيهها وضبطها أي هي من تحكم حركة الإبداع والإنتاج المعرفي[12].

وعلى اعتبار أن الهوية هي المحدد الأساسي لطبيعة الثقافة فهي أيضا محدد هوية الأمة من خلال خلفيتها التاريخية مع صرعاها الراهنة والتحديات الخارجية المفروضة عليها من القوى الامبريالية والتجارب المختلفة متعددة الأنماط والأعراق التي تعمل على صهر وصقل هوية الأفراد فتصبح في نظرهم أصلية كلما تقادمت وكأنها طبيعية، وكأنها جزء من النظام الطبيعي نفسه بالرغم من ثبوت الطبيعة وتغيير المعطيات الثقافية والمراحل التاريخية وفي هذا المجال يقول البيطار " أننا نصنع بما سبق إن صنعناه، أننا نحقق أفكارنا ومقاصدنا في العالم الواقع، وبعد أن تتبلور وتأخذ أشكالها الموضوعية المختلفة فإنها تحدد سلوكنا ومشاعرنا، الأمة تصنع أنظمتها الثقافية والاجتماعية ولكن هذه الأنظمة تشكل وتكون هوية الأمة"[13].

و بالتفصيل فالحديث عن الهوية الثقافية بكونها بمثابة القوى المحافظة على كيان المجتمع والمعبرة عن صورته، كذلك لابد أن نتحدث عن بعض ركائزها والمتمثلة أساسا في الإنسان أو الفرد في المجتمع والذي يعتبر حسب مالك بن نبي أحد أهم مكونات بناء أو تشيد الحضاري بكل مايعبر عنها من جوانب سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية وخصوصا الثقافية والذي يعتبر في نظره هو أساس قيامها ودومها فحسبه الإنسان يمثل الرصيد الثقافي للأمم من خلال سلوكاته وعلاقاته الإنتاجية ويقول بأن الثقافة تتحدد

من هوية الأفراد ودوافعهم لواقعهم ومعرفتهم لتاريخهم وماضيهم فهي تنشأ حسبه من تلقائية الصلات الثقافية الفاعلة بمجهود أو محصول هذا الفرد أو الإنسان[14].

وعليه فالمقصود بالهوية الثقافية هي تلك المبادئ والأفكار والمعتقدات وتلك الالتزامات المذهبية التي تشكل رؤية الكلية إلى العالم حوله وإلى عالمه الخاص به وإذا سلمنا بأن الهوية الثقافية هي مجموعة من العناصر التي تعبر عن أهم المكونات المعبرة عن صورة أو أصل الأمة فهي تتقاطع أو تتجسد إلى بعد كبير في جملة الثوابت الحضارية للأمة مع مجموعة الثوابت الثانوية المحصلة من جراء التحولات والتفاعلات الاجتماعية ولكن السؤال المطروح هو إذا كانت الثوابت الحضارية هي المعبرة عن الهوية الثقافية وهي وجهها فما الداعي للحديث عن إشكالية الهوية بالنسبة للمجتمع؟ وإذا كانت الثوابت الحضارية هي أساسية واغلبها نابع من الوجود والتراكم التاريخي ولا يمكن التنازل عنها بأي حال من الأحوال فلماذا نطرح مشكلة الهوية الثقافية في أوقات وفترات حرجة؟ وهل العولمة بكل ما تحمله من متناقضات تعمل على زعزعت هذين المكونين؟ وهل حقيقة أن العولمة تلعب على زعزعت مفاهيم الأفراد لهويتهم الثقافية سواء في شكلها أو التعاطي منها وبالتالي تغير فهمنا وقراءتنا لثوابتنا ومقاومتنا؟

ومن هذه التساؤلات نتوصل لتحديد مفهوم.

د.العولمة: ورغم أن البحث في موضوع العولمة من الأمور الصعبة والمعقدة فمشاكلها متعددة وتعاريفها مختلفة ومجالاتها كثيرة وغير محددة فالبعض يقول أنها قديمة بثياب حديثة، والبعض يظهر عيوبها دون مزاياها وهم كثر والبعض الآخر يتكلم عن محاسنها دون عيوبها، وعليه فتحديد هذا المفهوم وضبطه في غاية الصعوبة فهو مفهوم له بعدا تاريخيا ضاربا في القدم ولكن لم يحط بالذيوع والانتشار والازدهار إلا في أواخر القرن الماضي ونظرا لتشعب المحتوى الفكري للمفهوم والذي اختلطت فيه الجوانب الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية فعليه سنحاول التركيز في تعريفنا رغم صعوبة الأمر لتداخل هذه الجوانب مع بعضها على الجانب الثقافي والاجتماعي ولكن قبل إدراج هذه التعريف لابد أن نعطي صورة عن تكون أو ظهور هذا المصطلح فهو كنظام تعود جذوره إلى بداية القرن العشرين، فبعد انتهاء الحرب العالمة الثانية أطلق الأمريكي " مارشال" مشروعا سمى فيما بعد باسمه، يهدف إلى إعادة اعمار أوروبا الغربية وإلى إعادة تنظيم العلاقات النقدية فظهر صندوق النقد الدولي ومع انهيار ما يعرف بالاتحاد السوفياتي الذي مثل الثنائية القطبية التي حكمت العالم لما زاد عن سبعين عاما ومع انهيار كل من كان بدور في فلكه، انهارت معه الدعوة إلي الاشتراكية التي كانت تحمل نوعا من النزوع إلى تطبيق النظام الاجتماعي ، أما ثاني سبب فهو التطور السريع والمذهل في مجالات الاتصالات وخصوصا بعد ظهور الانترنيت والأقمار الصناعية التي أتاحت مجالا واسعا في التبادل المعرفي والمالي فغدت الأعلام ومحطات الإرسال العالمية ومنه أصبح العالم عبارة عن قرية صغيرة .

وكل هذه الأسباب أدت إلى ظهور ما يسمى بالقطبية الأحادية أي هيمنة النظام الأمريكي على العالم لا لأنه الأحسن وإنما لأنه أصبح الأوحد، واستطاع أن يهيمن نتيجة ظروف عالمية مواتية على غالبية الأنظمة واستطاع أن يحقق مردودا اقتصاديا أعلى واستطاع الوصول إلى تقدم تكنولوجي متطور أكثر[15]، هذا عن نشأة هذا المصطلح أما عن ضبطه وتعريفه فإننا لا نجد تعريف في قواميس اللغة أو

السياسة أو الاقتصاد وذلك نظرا لحداثتها، لأننا عندما نطرح مفهوم العولمة لا يقصد بها مفهوم مجرد فقط بل يلتفت إلى عملياتها الأساسية وهي المنافسة بين القوى العظمى، والابتكار التكنولوجي، وانتشار عولمة الإنتاج والتبادل والتحديث، ولكن رغم ذلك نجد بعض المسميات لها في اللغات الأوروبية ففي اللغة الفرنسية العولمة ترجمة لكلمة "mondialisation" والتي تعني جعل الشيء على مستوى عالمي أي نقله من المحدود المراقب إلى اللامحدود الذي ينأ عن كل مراقبة ونفس الكلمة الفرنسية المذكورة هي ترجمة للكلمة الانجليزية "GLOBALIZATION" والتي ظهرت أو ما ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية وهي تفيد معنى تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل الكل [16].

أما في اللغة العربية فهو : فمفهوم العولمة يعيدنا إلى مصطلح العالم أي الكون وليس العلم لذلك أطلق البعض عبارات تدل عليها كالنظام العالمي الجديد، وإمبراطورية جديدة، والقرية الكونية، وكل ذلك يعني بشمول هذا التعبير للأمور الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية بل حتى التقاليد والأعراف[17].

وخلاصة القول أن مصطلح العولمة منشأه غربي وطبيعته غربية، والقصد منه تعميم فكره وثقافته ومنتوجاته على العالم فهي ليست نتيجة تفاعلات حضارية غربية وشرقية انصهرت في بوتقة واحدة بل من سيطرة قطب واحد على العالم ينشر فكره وثقافته مستخدما قوة الرأسمال لخدمة مصالحه.

ورغم ذلك نورد بعض التعاريف كما أشرف سابقا ذات البعد الاجتماعي والثقافي لأنه محور طرحنا في هذه الورقة البحثية فعلى سبيل المثال لا الحصر يعرفها إسماعيل صبري عبد الله ويستخدم مصطلح الكونية ويقصد بها، التداخل الواضح لأمور الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع والسلوك دون اعتبار يذكر للحدود السياسية لدول أو انتماء لوطن محدد أو ولاء لدولة معينة [18].

ويقول في شأنها عبد الوهاب المسيري أن العولمة تجعل الغرب هو المركز وتجعل الإنسان الأبيض هو صاحب المشروع الحضاري الوحيد والجدير بالاحترام وفي نفس السياق يعرفها صبحي غندور يقول: أما العولمة فهي الخيار الآخر أمام الشعوب التي لا تزيد الصدام الحضاري مع أمريكا وهذا الاختيار بين الترهيب (صدام الحضارات) أو (الترغيب) بالانضمام إلى الحضارة الواحدة هو تماما كالتخيير بين الحرب والاستسلام ويعطيها عبد الصبور شاهين بعدا آخر بحيث يصفها بأنها جريمة أو مؤامرة تفضي على الخصوصية التي تميز الشعب وهي أولا وأخيرا قدر مرفوض على المغلوبين لمصلحة الغالبين[19].

كما يعرفها المفكر العربي ناصر الدين الأسد على النحو التالي:العولمة كالحداثة هي ظاهرة العصر وسمته وأن الوقوف في وجهها أو محاولة تجنبها أو العزلة عنها، وإنما هو خروج عن العصر وتخلف وراءه وعلينا أن نسارع إلى دراسة عناصر هذه العولمة وفهم مكوناتها والتنبه لاتجاهاتها[20].

2- <u>العولمة والاستلاب الثقافي والحضاري</u>:

لعله بالحديث عن مخاطر هذه العولمة سوف نتحدث عن المجال الثقافي أي عن كل ما يعيش به فكر الإنسان من تصورات ونظريات وممارسات وما يخفق به قلبه ويرتاح له ضميره من تمتع بحرية الفكر والتفرد بالخصوصية والشعور بالذات والحوار بلغة الذات مع النفس والناس، والمشكلة المطروحة هي الاتجاه إلى صياغة ثقافة عالمية لها قيمها ومعاييرها، لا تعترف بالحدود الثقافية الوطنية والقومية وتطرح

إيديولوجيا العولمة حدودا أخرى غير مرئية ترسمها الشبكات العالمية قصد الهيمنة على الأذواق والفكر والسلوك والثقافة .

ولعل أخطر ما تنطويه العولمة في الجانب الثقافي أنها تستهدف الهويات القومية ومقوماتها الرئيسية اللغة والدين والسمات التاريخية وأنماط العيش والسلوك والعادات والتقاليد ومعطيات الاختلاف والتمايز بين المجتمعات وكل هذه المقومات إنما هي مقدمة لمخاطر أعظم على الدولة والوطنية والاستقلال الوطني والإدارة الوطنية والثقافة الوطنية فخطرها على الثقافة مثل خطرها على اقتصاد الدول فمحاولة أن يكون الاقتصاد محكوما بقوانين الغرب وأمريكا وطريقتهم في التنمية وما يتبع هذا من تهميش لدول الفقيرة ويعتبر خطر على ثقافتها لأن أنماط العيش تتأثر بجو الاستهلاك وتتأثر بالبطالة وكذلك يتأثر التعليم بشكل واضح أفلا يعتبر هذا من آثار العولمة الثقافية حتى وإن لبست رداء الاقتصاد والتجارة ويتصل بشيوع هذه النتائج شيوع الجرائم والانحرافات[21].

وعليه فلا يختلف أنه خطر ثقافي له آثار على المجتمع وبالتدقيق وما تنطويه العولمة أو ما تفوضه نجده في القول الذي ذهب إليه فرانسيس فوكاياما في كتابه نهاية التاريخ وخاتم البشر يري أن الحضارة الأمريكية قد وصلت أعلى مستوى للرقي والتقدم يمكن أن يبلغه الإنسان في أي زمان ومكان وعليه فتوسيع تطبيق هذا النظام هو الحل وعليه يبرز التساؤل المحوري في هذا النطاق هو كيف يمكن لنظام ينادي باحترام حقوق الإنسان بما ينطويه من تنوع عالمي أن يفرض النمطية في كل المجالات؟

وعليه إذا كانت العولمة بمعناها الايجابي هي الاستفادة من كل منجزات ونتائج التقدم والتحضر وجعلها في خدمة وراحة الشعوب مع ترويج النمط الناجح العائد بالمنفعة أكثر من الضرر فهي مقبولة إلى حد بعيد، أما إذا كانت في جانبها السلبي تعني التفكير في ارتداد حضاري وفكري يعود بالشعوب المفروضة عليها أو المنضوية تحتها إلى عهود الاستعمار بأشكاله المختلفة فهذا يعني أنها تتميز بالغطرسة والاستبعاد واحتقار حضارات الشعوب وتحقير ثقافتها وموروثها،كذلك أن مثل هذا التفكير يصادر الخصوصية الثقافية ويتحول بصورة بغيضة وغير مقبولة على الهوية الثقافية والفكرية والوجدانية[22].

وكل هذا يسير بنا إلى فكرة مفادها أن العولمة بإيجابياتها لا تتناقض مع الهوية بكل ما تحمله من خصائص ومبادئ تعبر عن أصل الأمة وأن التناقض الظاهري أو الحقيقي –السابق الذكر– بين الهوية والعولمة وخطرها على الثوابت الحضارية يجب ألا يؤدي إلى مزيد من التفكك والتشرذم بل لا بد من التكامل بينهما وذلك عن طريق الاستفادة من جميع الخصوصيات التي تتمتع بها الهويات المختلفة ومحاولة الوفاق بين ايجابياتها ليأخذ كل شعب من العولمة ما يوافق هويته.

3_هويتنا الثقافية بين الأسلمة العروبة والعولمة:

إن تأصيل الهوية وإثباتها والوصول لإجابة عن مشكلة من أنا؟ صراحة تدل على مدى عدم قدرة الفرد على التعامل مع الأنا الحالي عبر الأنا التاريخي المتراكم ورغم أن هذا السؤال مشروع مبدأ، إلا أنه مدعاة لإشكالية طبعت المجتمع الجزائري في الماضي استمدت خليفتها من زعزعت واختلاط المفاهيم فسارت في عشرية مظلمة، وعليه فالإشكالية الأولى لا تكمن في أول ثوابت الأمة ألا وهو الدين بحيث لا يختلف حوله اثنان باعتباره محددا رئيسيا للهوية الجزائرية ومنه سنت دستورها وقوانينها كذا المحدد الثاني

وهو اللغة والأصل العربي إضافة إلى محدد آخر هو مصدر تنوع للهوية الجزائرية هو الأصل الأمازيغي باعتباره يدخل ضمن الخطاب الرسمي للهوية الثقافية بمرجعياتها الثلاث ومنه فالاختلاف حول الهوية عامة والتركيبة الثقافية خاصة ليست الأشكال فمن هذه المبادئ أو المعطيات ولكن صياغتها وتأثرها بالواقع الاجتماعي جعلها تفقد التوليفة والتركيبة بينها.

وفي النهاية الهوية وبرؤية سوسيو– تاريخية ليست معطى ثابت حيث أن التغير يظل لصيقا بها نتيجة لما تتعرض له هويات الأفراد وإعادة إنتاجها بفعل التأثر والإغراء الذي تمارسه بعض تلك المؤثرات فهناك الكثير من المؤثرات الكونية الجديدة التي لا يزال العقل الجزائري المتأمل يقف مشدودا إزاءها ولا يجد نقطة ارتكاز تمكنه الانطلاق منها لمسألة الآخر وخصوصا أنها تعمل بمنطقية العالم كله في عقر داره وتدعو في أغلبها إلى قيم الانحلال الديني والأسري في معطى الديمقراطية وحقوق الإنسان خاصة عند المرأة لكون النظام العالمي يهتم بشكل خاص خصوصا في نمط عيشها وعملها وأفكارها ونظرا لدور الذي تنفرد به حياة الأسرة والمجتمع وأيضا من خلال ترويج قيم المصلحة الذاتية قبل كل شيء الحرية الشخصية لا قيود عليها، وهذه القيم المستمدة أو متمشية تماما مع الفلسفة البرجماتية وتنافي مع قيم مجتمعا الإسلامي العربي القائم عن الحرية في إطار المسؤولية والعمل الجماعي والتكافل في إطار المصلحة العامة.

وعليه فإن رأي الفرد الجزائري إزاء هذا الموقف رغم توافر محددات الهوية المستند إليها يبقى مضطرب إزاء المؤثرات الثقافية الوافدة المؤثرة على قوة شحنة العاطفي وعلى امتداده التاريخي تجذره الاجتماعي ولكن رغم هذا نجده لا يتبني رد فعل إيجابي اتجاه الأخر وهذا ما يجره في الغالب نحو رد فعل انفعالي ومتطرف سواء بالقبول التام لتلك المؤثرات وتبنيها أو برفضها التام ويبقى متوقعا على ثوابته التي يشعر بالخوف الكبير عليها من كل وافد وعليه وجب ظرف بديل وحلول تعمل على صيانة الفرد بكل ما يعمله من خصائص المجتمع وبكل تركيباته ضمن خصوصياتها ومحددات هويته.

4_ أفق واستراتيجيات الاستفادة من العولمة والمحافظة على التراث والهوية:

إن طرح هذه الأفق ضمن مجتمعنا الذي لا يزال يتخبط ضمن مشروعه الاجتماعي الغير محدد الوسائل والنتائج والأهداف في حين نجد العديد من المجتمعات قد فهمت معنى هذه القولبة الكونية بكل ما تحمله من إيجابيات وسلبيات فمثل هذه الدول نجد مثلا فرنسا قد سمعت لإبراز هويتها الثقافية ضمن إطار واستراتيجيات محددة متصدرة الإعلام بإعطاء الناتج الوطني حقه وكذا في الجانب السياحي كالخاص بإبراز التراث وطرق العيش و الأكل.. الخ. وكذلك صاحبة النظام العالمي (أمريكا) أصبحت تخاف على خصوصياتها الثقافية جراء الهجرة وهذا دليل على وعي أفرادها بقيمة الهوية وخاصة إذا كانت الأمور تتعلق بالأمور الثقافية وفي نفس السياق نجد دول شرق آسيا المعتمدة في الأساس على دور العائلة في سياساتها واقتصادها ونبذ الفردانية بحيث جعلت منها قوي عظمي عملت على إفشال جزء من الهيمنة الأمريكية على سياستها وثقافتها وبقيت محافظة على تراثها وثقافتها وخصوصيتها وبدأت هي الأخرى في تصديرها كحل مضاد.

هذا عن الجانب العام أما فيما يخص مجتمعا فهذه بعض الأطروحات المبدئية والمتمثلة أساسا في:

- علاج الضعف الذي نتج عنه عدم وجود الثقة بالذات الإسلامية والعربية خصوصا على مستوى الفرد فهو أصبح يشعر بعدم انتمائه لدينه وثقافته جهلا بها وإعجابا بغيرها كل هذا ناتج عن نواتج الجهل بالأصول والتاريخ الحضاري للأمة
- وتطبيقا لهذه يتوجب علينا كمجتمع الارتقاء النوعي بأوضاعنا ويتطلب منا رؤية شاملة لواقعنا والعمل على أساسها من خلال التعاطي المكثف مع كل مخرجات هذا المجتمع[23].
- وباعتبار مجتمعا مجتمع تاريخي فإن دفاعه عن أسلوب حياته هو دفاعه عن شخصيته وهويته، وعن مبدأ إدماج أفراده في نطاقه وكل خطأ يقع في هذا الأسلوب يكون تحت طائلة النقد يقع كل خطأ تحت إرغام المجتمع وبواسطة هذه الوظيفة الثنائية الجانب يحافظ المجتمع على نقاوة أسلوبه وعلى الصفات المميزة لفاعلية الوظيفة إنما هي على وجه الدقة وظيفة الثقافة، وفي أصلها تحدد القاعدة من الضمانات المتبادلة بين الجسم الاجتماعي والفرد فهي تتولي الدفاع عن تراثها[24].
- التمسك بشخصيتنا والاعتزاز بشعبنا من خلال الاستجابة لمطامحه السياسية التعليمة والثقافية وفقا لمقتضيات العصر ومتطلبات التطور والاقتصادي والاجتماعي وإعطاء أولوية العلم والتقنية وذلك يعني أننا لا نريد أن نجعل من العلم والثقافة مجرد ترف فكري بل يعني أننا نريد أن نجعل من المواطن إنسانا مثقفا ومنتجا ناجحا في نفس الوقت [25].
- وبالتطبيق هذه المضامين على أرض الواقع لا بد أن نخطط ونرسم هويتنا الثقافية المنبثقة من ثوابتنا الحضارية الأصلية أن نعد استراتيجيات لإعادة الأهمية والوظيفة للأسرة والتعليم والإعلام بحيث تخرج من منهج التلقين والثبات على القديم إلى الحوار والإبداع وهما جزء مهم من هويتنا الثقافية.[26]
- وعليه فإننا أمام حتمية أن نؤول إلى حظيرة للثقافة ومدرسة يتاح فيها لكل فرد أن يتعلم ولعلم ومختبر يتم فيه إعداد القيم الثقافية المتطابقة مع ضرورات والتقدم والتطور، وملتقى تكمن داخله من إثارة قضايا تخدم مصلحة الأمة.
- وكما أبرز مالك بن نبي أن حظوظ المحافظة على التراث يتطلب الفاعلية الحضارية وأن نمتلك أسبابها ونبلغ مستواها إلى القدر الذي يغدو معه حب العمل والخلق والإبداع المتميز من سجايا المجتمع بفئاته جميعا.

<u>خاتمة:</u>

إن الاحتفاظ بملامح هويتنا الثقافية بكل ما تحمله مركبات اجتماعية وسلبيات أمر ممكن لكنه يحتاج إلى جهد وقلبه إلى إدارة صادقة للاستقلال ورفض التبعية بحيث نخرج بفكرنا من دائرة الاحتكاك والتقليد والصراع ونجعل من التعايش والانفتاح هما مفاتيح معرفة وقراءة هذا الوافد الجديد ونعمل على إعادة الثقة لأجيالنا في دينه ولغته وأصل انتمائه. ونأخذ ما يعمل على إبرازها أكثر وتعريف الأخر بها لكون مبادئها ذات قيم وإخلاف عكس ما تدعو إليه العولمة بكل أبعادها المادية التي حصرت الإنسان

دخل جسده داخل عقله وبهذا نعمل على تقليص الفجوة الثقافية خاصة العلمية والتكنولوجية وننجح في تحدي التوفيق بين أصالتنا والحداثة ونحافظ على أنماطنا الثقافية وبهذا نكون على الدروب الصحيحة لركوب أمواج الحضارة ولا نكون على طريق التهميش بسبب عدم مشاركتنا فيها ولا نكون من دعاة الاندماج فيها ولم ندخلها إلا بجهلنا من باب الاستهلاك فاستهلكتنا وحسرتنا لكل ما حققناه من مكاسب على مر الزمن.

المراجع:

1- أحسن ثليلاني : توظيف التراث في المسرح الجزائري ، أطروحة دكتوراه في الأدب العربي الحديث ، قسم اللغة و آدابها ، كلية الأدب العربي واللغات ، جامعة منتوري قسنطينة ، الجزائر ، 2009 – 2010 ، ص 12.

2- نفس المرجع : ص ص 13 .14.

3- سليمان بن سالم ناصر الحسني: الثوابت والمتغيرات في مجتمع المعرفة- ندوة الإسلام ومجتمع المعرفة. 2،3 مارس 2009. ص7.

4- سليمان بن سالم ناصر الحسني: المرجع السابق ص9.

5- معماش النوري: تكريس الثورة التحريرية لمفهوم الأمة الجزائرية مجلة الأدب والعلوم الاجتماعية جامعة فرحات عباس سطيف العدد 10، 2008- ص88.

6- Zouhir boushaba. être algérien hein aujourd'hui et demain- éditions unimouni- p193.

7- سليمان بن سالم ناصر الحسني: المرجع السابق ص12.

8- عباس محجوب: مشكلات الشباب الحلول المطروحة والحل الإسلامي –كتاب الأمة ظ1- 1985 ص35.

9- سعدون حمادي وآخرون: دراسات في القومية العربية والوحدة. سلسلة كتب المستقبل العربي 5. مركز دراسات الوحدة العربية ط1. 1984. ص ص 21 22.

10- محمد أبو سغيرة وتأثر احمد غباري: الثقافة وعناصرها .مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع ط1.عمانالأردن.2009. ص17.

11- سعد الله ابو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي ج1.ط2المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985. ص10.

12- زعو محمد: آثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب المحلية الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية. جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف. العدد 4 .2010. ص93.

13- سعدون حمادي وآخرون :مرجع سابق. ص ص21 22.

14- آمنة تشيكو: مفهوم الحضارة عند مالك بن بني.وآرنولدتوبيني المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1989. ص129.

15- زكريا بشير إمام :في مواجهة العولمة مركز قاسم للمعلومات وخدمات المكتبات.ط1 الخرطوم السودان .2000 .ص205.

16- محمد عمر الحاجي: العولمة أم العالمية الشريعة الإسلامية. دار المكتبي للطباعة النشر والتوزيع. ط.2 دمشق. 2002 .ص14.

17- الشريف علي بن محمد الجرجاني: التعريفات. دار الكتب العربية. بيروت. 1998. ص53.

18- محمد عمر الحاجي :المرجع السابق. ص16.

19- بلقاسم سلاطنية: حقيقية العولمة مجلة العلوم الإنسانية جامعة منتوري، قسنطينة الجزائر. عدد 12. 1999. ص9.

20- بلقاسم سلاطنية: المرجع السابق. ص10.

21- أبو اليزيد أبو زيد العجمي : هويتنا الثقافية في عصر العولمة .مجلة العلوم الاجتماعية. جامعة الكويت مجلد 31 .عدد 2.. 2003 ص 425.

22- زكريا بشير إمام: مرجع سبق ذكره .ص 170.

23- محمد عمر الحاجي :مرجع سبق ذكره. ص39.

24- علي حمدان: إشكالية الهوية والانتماء .سلسلة الاستراليون العرب. المركز الاسترالي للدراسات السياسة .ط1 . سيدني .ص 93 .

25- مالك بن نبي: القضايا الكبرى. دار الفكر. الطبعة 1 . دمشق .1991. ص 64.

26- أحمد طالب الإبراهيمي: من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية 1962-1972 .الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر. ص 80.